



**عزيز الغزالي:** إطار بوزارة المالية ، مدير صفحة قبيلة تقاليد وعادات ، عضو بلجنة التنسيق بموقع [WWW.BRANESTAZA.MA](http://WWW.BRANESTAZA.MA) يبدع قصص قصيرة / خواطر من وحي الطفولة بالبرانس مسقط رأسه : **حسن عرود**، ليلة القطرة وصباح الجبيرة ، أرقية ثم انتظار وانكسار

## حسن عرّود



كانت أيام طفولة جميلة قضيناها معا، أنا وأبناء الجيران من سني، كنا رفاقا لا نفترق إلا عند مغيب الشمس بعد يوم حافل بالأحداث، نستيقظ باكرا، نتناول كسرة خبز مغمسة بالزيت، وكوب قهوة، نبحث في ظلمة الفلق عن محفظتنا، التي لم تعد تحمل سوى الاسم، بعدما أكل عليها الدهر وشرب، بسبب تواتر استعمالها بين الإخوة.

من حسن حظنا أنها محفظة عسكرية، لا أدري كيف حصل عليها أهل الدار، نخرج باكرا، وينتظر بعضنا البعض، نتصافح بسرعة ثم نلملم أيادنا وندسها في جيوبنا، التي لا شك أنها كانت أيضا ممزقة. نقصد المدرسة، وكلنا أمل أن يغيب المعلم عن الحصة. لكن هيهات، لقد حضر في الموعد، وهاهو يتأبط عصاه، وعيناه محمرتان من قلة النوم... تقشعر جلودنا ونتحمل في صمت عنفه، وتصير أجسادنا لقسوة هذا الجراد الذي لا يرحم. تأتي ساعة الفرج، فنخرج ونطلق سيقاننا للريح، نتسابق في اتجاه الدار. في الطريق، نمارس لعبنا المفضلة من قبيل الركال، وعكيلة، وحابا...

عندما يكون الجو ربيعا والحقول جادت بغلالها، لن نفوتنا فرصة انتقاء أجود خروب الفول وقميرة، والارتواء من مياه سواقي المروج. ننحني كي نشرب مياهها عذبة من "زطمة البغل"...

لكن منذ أيام لم يحضر معنا صديقنا حسن بسبب المرض، لقد لازم الفراش منذ مدة وافتقدناه، لم نستطع إدراك ماهية الأمر، غير أننا نسمع أمهاتنا يدعون له بالشفاء، ويتحسرن على حال أمه المسكينة التي لا تكف عن البكاء.

بمجرد وصولي إلى الدار، طلبت مني الوالدة مرافقتها إلى بيت حسن، قالت إنه يسأل عني كثيرا ويريد رؤيتي. استجبت توا للأمر، حملت أمي بضع بيضات لملمتها في منديل، كهدية للمريض حسن. بمجرد دخولنا بيتهم، سمعت صوتا أمه وهي تبكي بصوت مرتفع، أحسست بخوف شديد ورغبة عارمة في البكاء، دون أن أفهم ماذا يجري بالضبط. قصدنا الحجرة التي يرقد فيها، كانت شبه مظلمة، لأنها توجد في عقر الدار، نزعنا حذائي البلاستيكي مثلما فعلت أمي وتراءى لي حسن تحت الفراش جثة هامدة، وأمّه تجلس قربها وتبكي، تبكي بصوت عال، وتردد كلاما بقي عالقا في ذاكرتي إلى اليوم، (وووووووووووليبيببيبيبي مادموتش ودخليني). كانت ترددها بأعلى صوتها وتذرف معها دموعا غزيرا. تبكي معها باقي النسوة ممن حضروا لمواساتها.



شرب بعض الجرعات، وبعد حين استفاق. فرح الجميع، بعدما لمحووا البسمة تعلو شفاه الأب، لكن الزوجة تحسست يده اليمنى لتجدها مكسورة، فكانت الصدمة قوية، إلا أنها كتتمت الأمر حتى الصباح الباكر، فخرجت مسرعة في اتجاه دار عمي أميدة، مول الجبيرة....

## ارقية



كان قطيعها بسيطاً، يتألف من نعجتين وخروف ومعزة، تسعد رقية كثيراً باللعب إلى جانب قطيعها الصغير رفقة ثلة من بنات سنها، في أحد الأيام، رجعت إلى البيت منهكة تبحث عن كسرة خبز مطلية ببعض الزبدة أو بيض مسلوق في أحسن الأحوال، كي تأكل وتخلد للنوم لاستقبال يوم جديد.

لكن هذا المساء ليس كغيره، فقد لاحظت وجود وجوه جديدة بالبيت، نسوة ورجال، والجيران أيضاً حضروا. حاولت أن تفسر سر وجودهم بتفكيرها البسيط، لكنها لم تفلح، بدأت تسمع كلاماً غريباً، ورأت في عيني أمها دمعا يكاد يسيل، وتحاول إخفائه بابتسامة مزيفة. حاولت رقية أن تشارك الحاضرين في أشغال البيت، لكنهم منعوها بلطف، وطلبوا منها أن تجلس مع الضيوف من النساء، بعدما ألبسوها ثوباً جديداً، وسمعت الجارة تقول إن "رقية تحب الحناء كثيراً، وهذه الليلة سأتولى طلاؤها لرجليها ويديها حتى يصبح لونها أحمرًا قانياً غداً".

تعجبت الفتاة كثيراً من هذا السخاء الزائد عن اللزوم، وعند العشاء، منحوها فخذ ديك بلدي، ولوزاً وعلكاً وحلويات... مازالت رقية تتساءل في حيرة من أمرها عن السبب، وتوجست خيفة، حتى أنها لم تتمكن من أكل سوى اليسير مما أعطي لها. الجارة تبدو جد مسرورة، وتلحق برقية إلى الحجرة المجاورة، وتخبرها عن السر: سيأخذك رجل من الدوار الذي يوجد خلف الجبل، سنزوك يا رقية، وسنقيم لك حفلاً بهيجاً.

عندها فقط، حاولت رقية أن تفهم ما يجري، وتذكرت لعبة العريس والعروسة، التي كانت تلهو بها رفقة صديقاتها وراء القطيع، لكن الأمر أصبح حقيقة، وببراءة الصغار، سألت رقية جارتها "هل ستحضر معي أمي إلى هناك؟". ردت الجارة "نعم بالتأكيد، سنلحق بك في اليوم الموالي، وسنحمل إليك إسفنجا ودجاجاً شهياً، وسلّة بيض كي تأكلها رفقة زوجك". اختلطت الأوراق في ذهن الطفلة رقية ذات الخمسة عشر ربيعاً، وتسلل الخوف إلى كيائها واحترت بين البكاء أو الفرح أو ماذا...

بعد أيام، جاء موكب العريس وسمعت رقية صوت الغيطة والطبل يقترب من الدار، بسرعة البرق، حملوها فوق بغل مفروش الصهوة، وركب شقيقها الأكبر وراءها، والمسكينة تنظر من تحت فستان الفرح إلى من حولها. طالت مسافة الطريق، وفي كل خطوة نحو الأمام يزداد الخوف من المصير المجهول...

وصلوا بالعروس إلى بيت الزوجية. تحديق رقية في محيط غير ذاك الذي ألقته. حملوها إلى غرفة في عمق الدار، شموع وعطر وعود وطبل وصلابة على النبي من أفواه الحاضرات، وقلب المسكينة يزداد خفقانا...  
دخل خلفها العريس وأغلق الأبواب. واجهت رقية مصيرا عسيرا... مرت الأيام وتوالت الشهور، وصارت الطفلة أما رغما أنفها، وظلت تقاسي مصيرها بين أهل غير أهلها.

(تحية إجلال لكل أم برنوسية ضحت بطفولتها لتصير أما قبل الأوان، ونصير نحن الأبناء. قبلاتي أمي  
الغالية. قصة مرتجلة في ليلة غاب فيها النوم وحضرت الذكريات)

## إنتظار وانكسار



جلست بعيدة عن جانب الطريق، تترقب موعد الوصول، تلاحق بعينيها كل عربة تمر من حين لآخر، تراقب اقترابها من مسافة بعيدة، وكلها أمل أن يكون على متنها من تنتظره بشغف جنوني، تكتمه داخلها.  
تتبادر إلى ذهنها الأسئلة تلو الأخرى، ترى كيف يقضي يومه في تلك الأرض المسماة صحراء؟ من يطبخ له؟ من يؤنس ليله الطويل؟... أسئلة كثيرة تحاول فك ألغازها من خلال تذكر ما كان يحكيه لها، لكن خيالها لا يسعها في رسم صورة طبق الواقع لحياة الجندي المغترب في مجاهل الصحراء. كيف يمكنها ذلك، وهي لم تبرح قط بلدتها الصغيرة إلا مرة واحدة، صادفت يوم رافقها أبوها وأمها إلى تازة العليا كي تشتري "زهاجها" قبيل عقد القران.

مر اليوم بسرعة بسبب كثرة المشاغل، حتى أنها لم تسنح لها فرصة فك طلاسم هذا الوحش الذي يسمى مدينة، وكادت تصاب يومها بغيوبة وتظل مشدوهة في كل ما حولها إلى أن تستفيق على كلمات أبيها القاسية "زيد الوعد، مالك غي فاتحة فاك؟!..."  
تذكرت تلك الليلة العصبية، التي كان الجميع في احتفال وفرح إلا قلبها الصغير، تذكرت كيف استطاعت أمها أن تتخلى عنها، ولم تجد بعدها من يمرر يديه في شعرها ويسرحه بمشط القرن، وقليل من الزيت، لتعد لها صغيرة متقنة من شعرها الطويل. تذكرت أول يوم خاطبتها فيه "عكوزتها" عبر النافذة قبيل طلوع الشمس طالبة منها النهوض من النوم، لأن مهرها كان غاليا، ولا مجال للراحة بعد الآن. تذكرت تلك الكلمات الجارحة، التي كانت تسمعها من "شيخها"، وهو يتهم على ما أعدته من رغيف "خرينكو"، الذي لم تظهر ثقوبه وبقي "محنكا". يخاطبها الشيخ "هاد خرينكو عطيواه للكلاب، راك أضيعني فرزقي أطفلة، الله يهديك".  
تذكرت كم مرة أحرقت يدها بنار الكانون، وكم مرة تناولت عشاءها في النواله وحيدة، لأنه "عيب" أن تجلس الضيوف الذين يحضر معهم رجال، وطبعا هي ليست من محارمهم. تذكرت ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى البئر وسقط دلوها، فظلت تبكي، لأنها تعرف أنها ستسمع سبنا نابيا من لسان "شيخ" الدار.

يحضر التذكار ويطول الانتظار، ليس شوقا للقاء من عشقه قلبها، لكن لمن فرضته عليها الظروف ووجدت نفسها مرمية بين أحضانها رغما عن أنفها.

وقفت سيارة الأجرة، نزل منها بعض النسوة، يتقدمهن رجل مسن. لم يأت إذن، وقد مرت أربعة شهور أو أكثر على غيابه. فقدت الأمل، وعادت لتضع يدها على خذها والدمع يملأ عينيها، وشفتاها تندنان لحنا حزينا حفظته عن أمها، تردد فيه بحسرة :  
طالع الكار وبيبانو د اللوح \*\*\*\* والوليد أوليد، أنا قلبي مجروح